# هل يكفي التراث لأداء دور حضاري متميزة؟

**الدكتور برهام غليون**

نشر في كتاب

الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

(سلسلة مشروعات ثقافية)

مركز البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى

1421 هـ /2000م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان
1439 / مايو 2018

# هل يكفي التراث لأداء دور حضاري متميز؟

**الدكتور برهان غليون**(*)

إن صيانة الإرث والإبقاء عليه حيًا، ليسا مضمونين من دون الارتقاء بالوعي والجهد والتنظيم إلى مستوى الحضارة الراهنة، أي من دون بذل جهد استثنائي لإعادة بناء هذا الإرث وتوظيفه وتثميره حتى يستعيد الحياة والحيوية في شروط وجود لم يعرفها من قبل.

هل يكفي التراث العظيم حتى تتأهل أمة لأداء دور متميز في الحضارة الكونية؟

تستدعي الإجابة على سؤال: ما هو الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد؟ معرفة ثلاثة أمور بدقة:

الأمر الأول هو: ما المقصود بالدور الحضاري؟

فهل المقصود بالدور الحضاري انتقال الأمة الإسلامية من موقع المستهلك والعالة على إبداعات الآخرين التقنية والعلمية والإنسانية، نحو موقع الفاعلية والمشاركة الإيجابية بقسط من النشاط المنتج لهذه القيم الحضارية المختلفة؟

أم المقصود مساهمة خاصة ومتميزة لا يمكن أن يقدمها طرف غير الأمة الإسلامية في الحضارة الإنسانية، نظرًا لما تتمتع به من منظومات قيم أساسية هي عناصر القوة فيها، ومنها على سبيل المثال ما يذكره الكثير من المفكرين الإسلاميين، بعد المستشرقين الذين سبقوهم، عن السمة النوعية الروحية للثقافة الإسلامية بالمقارنة مع الثقافة الغربية العلمانية

(*) مدير مركز دراسات الشرق المعاصر في جامعة السوربون (باريس).

أو المادية؟

أم المقصود أخيرًا نشوء دورة حضارية إسلاميةعالمية تعقب الدورة الحضارية الغربية وتعكس هيمنة القيم والأفكار والاعتقادات ومناهج العمل والتفكير الإسلامية، وتسمح للمسلمين باستعادة القيادة والهيمنة الدولية على الساحة العالمية، كما تأمل العديد من الفرق الإسلامية؟

والثاني: ما المقصود بالأمة الإسلامية؟

هل يتعلق الأمر بالمساهمة التي يمكن أن يقدمها أي مجتمع إسلامي في الحضارة البشرية، باعتبار أن كل مجتمع إسلامي يختزن منظومة واحدة من القيم، ويمثل في نجاحه وفشله جميع المجتمعات الإسلامية الأخرى؟

أم يتعلق الأمر بمجموع الأمة الإسلامية، باعتبار أن اجتماع هذه الأمة هو شرط إيجاد الشروط الجيوستراتيجية والمادية والمعنوية الكفيلة بتغيير طبيعة المشاركة الإسلامية الراهنة التي تعكس انقسام العالم الإسلامي وتشرذمه؟ وفي هذه الحالة تطرح لا محالة مسألة فيما إذا كان من المشروع النظر إلى العالم الإسلامي كوحدة، أي كفاعل تاريخي ذي إرادة واحدة ووعي ومصير وأهداف مشتركة يسعى إلى تحقيقها، بصرف النظر عن اختلاف الدول والثقافات واللغات والمراسي الجيوسياسية التي تفصل بين دوله ومجتمعاته وتمزقها أحيانًا. وهو ليس من الأمور البسيطة أو المتوقعة على الأقل لفترة طويلة قادمة.

والثالث هو: ما المقصود بالغد؟ أو عن أي غد نحن نتحدث بالضبط؟ هل نقصد القرن الواحد والعشرين، آخره أو أوله؟ أم نقصد عالم الثورة المعلوماتية الجديد، الذي لا نعرف متى سينتهي بعد بدايته منذ منتصف هذا القرن؟ أم نقصد عالم ما بعد الثورة المعلوماتية، باعتبار أن هذه الثورة قد بدأت منذ بعض العقود ويمكن أن تنتهي في

العقود القليلة المقبلة لتحل محلها ثورة أخرى قد ترتبط بقفزة استثنائية جديدة في ميادين الهندسة الحيوية، ولا نستطيع منذ الآن أن نقدر طبيعتها، ولا أن نتوقع نتائجها؟

ليس من الضروري الإجابة على جميع هذه الأسئلة بالتفصيل، لكن ذكرها يبين إلى حد يكتسي السؤال في الأمور التاريخية التي ترتبط مجموعة كبيرة من الأطراف فيما بينها وتتحدث عن أهداف ليست واضحة تمامًا لأنها تتعلق بالمستقبل، طابعًا تأمليًا وتخمينيًا من جميع الوجوه.

ولعل فهم طبيعة السؤال تكون أسهل لو عرفنا السبب في طرحه، وهو من دون شك الشعور المتزايد والمؤلم عند العرب وربما المسلمين، بموقع الهامشية والمساهمة الاستهلاكية والسلبية في الحضارة، وأملهم في أن يتغير ذلك في يوم من الأيام لتصبح الأمة العربية، مستندة على العالم الإسلامي الكبير، مساوية في شروط وجودها ومساهمتها للأمم الأخرى، ويصبح من الممكن للعرب أن يحظوا باحترامهم لأنفسهم في عالم بدأوا يفقدون فيه، بسبب ما بدر منهم من ضعف وانعدام سيطرة على المحيط الحديث، كل اعتبار.

وهكذا فإن السؤال عن الدور المستقبلي للأمة الإسلامية يعيدنا في الواقع من جديد للسؤال الكبير التاريخي، الذي لم يكف العرب عن طرحه منذ نهاية عصر النهضة وبداية هذا القرن العشرين، عندما بدأت النهضة تفقد ديناميتها وقوة دفعها: لماذا تأخر العرب وكيف يمكن النهوض بهم من جديد ليسايروا في معايير وجودهم ومقدراتهم الشعوب والمجتمعات الأخرى؟ لكن السؤال مطروح بصيغة أخرى: هل سينجح العرب في تغيير شروط وجودهم الراهنة التي تؤكد دونيتهم، أم أنهم سيبقون في

المستقبل القريب كما هم عليه الآن مهمشين ومستضعفين؟

والواقع أن هنالك مشكلة في طرح السؤال نفسه، لأنه يفترض أن العرب أو المسلمين شيء والعالم شيء آخر، ولا ينظر إلى الحضارة كمجموع تراكم منجزات ومكتسبات علمية واجتماعية وفكرية وأخلاقية ساهمت فيها العديد من الثقافات البشرية، وأن حصول الطفرة الصناعية أو التقنية أو الرأسمالية في منطقة ما لا يعني بالضرورة إدانة المناطق الأخرى بالعزلة والهامشية. وإنما يطرح مسألة التفاوت في النمو بسبب امتلاك بعض المجتمعات لأسبقية في العديد من الميادين، في موضوع الإبداعية والإنتاجية معاً.. والقصد هو القول: إن العرب لم يتأخروا، ولكن الغرب، والأوروبي أولاً، هو الذي تقدم فجأة باكتشافه لأساليب إنتاج جديدة ومناهج تفكير وتنظيم علمي للمعارف مبتكرة.

وإذا كان الحال هو هذا، يصبح السؤال الصحيح هو التالي: لماذا لم ينجح العرب في تمثل الطفرات العلمية والتقنية والاجتماعية الجديدة في القرن الماضي، حتى يستدركوا الفجوة التي أحدثتها الثورات الفكرية والسياسية والعلمية والصناعية والتقنية؟ وتكملته بالسؤال التالي: ما هي العوامل التي أعاقت هذا التمثل الذي بدأت محاولاته منذ أكثر من قرن ونصف؟ وعندئذ يمكن الخروج من إطار التفكير العمومي الذي طبع إجابات العرب والمسلمين على هذا السؤال من نوع: هل الإسلام هو المسؤول لمجافاته العلم والإبداع والابتكار، كما يدعي البعض ؟ أم هو ترك المسلمين للإسلام وتحريفهم له وتشويههم لصورته، كما أجابت الإصلاحية الإسلامية؟ أم هو الاستعمار والإمبريالية، كما سيجيب القوميون والماركسيون؟ أم هو بالعكس رفض التعلم من الغرب وتقليده والاقتداء به، وفي مقدمة ذلك رفض نظمه الديموقراطية وقيمه المادية والعقلانية والتمسك بالتقاليد الشرقية الدينية والطوباوية والأبوية، كما

تقول النظريات السائدة اليوم في أوساط أغلب الباحثين في العلوم الاجتماعية، من عرب وغربيين؟

وانطلاقًا من ترك هذا السؤال وجوابه الأيديولوجي العام، يمكن الدخول في البحث العلمي والتفكير الاختياري المرتكز على فهم تجربة التحديث العربية والإسلامية منذ القرن الماضي، ومقارنة هذه التجربة مع تجارب المجتمعات الأخرى التي نجحت في التغلب على الفجوة الحضارية التي خلفتها الثورة التقنية السياسية والعلمية بين المجتمعات والشعوب، بل يمكن وينبغي مقارنة تجارب المجتمعات الإسلامية نفسها فيما بينها، ورؤية المشاكل الخاصة المطروحة أو التي طرحت على كل منها، فليست جميع الشعوب الإسلامية في موقع واحد من الحداثة، ولا تعاني جميعها من المشاكل ذاتها، وليست الفجوة على درجة واحدة من الاتساع عند جميعها بينها وبين المجتمعات السائدة.

وهذه المقاربة العلمية، أعني المرتبطة بفحص الواقع وتحليل التجربة العلمية كما حدثت بالضبط، وتمييز عناصر الفاعلية وعناصر الإحباط فيها، هي التي ستساعدنا على الحصول على حل المسألة الحقيقية التي تكمن وراء السؤال عن تأخر المسلمين وتقدم غيرهم، أعني مسألة تقدم العالم الإسلامي وسيطرته على ذاته وعلى محيطه، وتحوله من موقع العالم المهمش أو الفاقد للسيطرة والسيادة إلى عالم مشارك في الحضارة على قدم المساواة مع غيره من المناطق الحضارية، ومبدع بالقدر نفسه للأفكار والقيم والتقنيات الجديدة.

والقصد أن البحث في التاريخ والمستقبل منه بشكل خاص، لا يعتمد ولا ينبغي أن يعتمد على التخمين أو الضرب بالرمل والودع.. إنه يقوم على استقراء الوقائع المادية والسياسية والاجتماعية والأدبية والنفسية، ليستمد منها مؤشرات التغير أو

اتجاهاته العميقة. فما هي حقيقة الوقائع التي تفسر إجهاض تجربة الحداثة أو التحديث العربية، ليس بمعنى زوال أي بنيات حديثة من المجتمعات، ولكن بمعنى وصولها إلى مأزق لا تعرف كيف تتقدم بعده، ونزوعها نتيجة ذلك إلى التراجع والتقهقر والتشكيك بالذات، وبالتالي بقائها في حالة قاسية ومعذبة من عدم الاكتمال، كالحبل المقطوع؟

وما هي عناصر الانسداد والتيبس والاختناق في هذه التجربة الحداثية والتحديثية؟ وهل لا يزال هناك في الواقع العربي والإسلامي الراهن، أو لا يزال من الممكن لنا أن نعين ديناميات قوية دافعة في اتجاه التغيير وتجاوز الصعوبات واستدراك الفجوة على مدى عقد أو عقدين أو ثلاثة، وهو في نظري كل ما نستطيع أن نقبله على سبيل التوقع المستقبلي؟

أو بالأحرى: هل نستطيع أن نقول: إننا وضعنا إصبعنا على عناصر الانسداد في نظمنا الاجتماعية والسياسية والعلمية والاقتصادية، وبدأنا رحلة الخروج من المأزق الذي وصلت إليه تجربتنا في استيعاب مكتسبات الحداثة، وأن بإمكاننا منذ الآن أن نشير من دون صعوبة كبيرة إلى ديناميات جديدة، لم تكن من قبل، ذات طبيعة اقتصادية مثل بناء سوق إقليمية واسعة، أو اكتشاف ثروات كبيرة جديدة، أو فتوح تقنية تكنولوجية؛ أو ذات طبيعة سياسية مثل إنشاء تكتلات أو وحدات سياسية أو عسكرية، أو تطورات في النظم السياسية تضاعف من مبادرة الأفراد والجماعات وتضمن الاستقرار والفاعلية في الوقت نفسه؛ أو طفرات علمية مثل تكوين نظم تعليمية وتربوية قادرة على بناء مهارات مبدعة تنجح في التنافس مع النظم التعليمية والتربوية الأخرى؛ أو طفرات ذات طبيعة أخلاقية ونفسية تظهر نشوء أو تبلور منظومات قيم تعمق الشعور بالمسؤولية وتعزز قيم الأخوة والتضامن والتفاهم واحترام

القانون والحق والواجب بين أبناء البلاد والمجتمعات العربية، أقول هل هناك ديناميات من هذا النوع تسمح لنا بتوقع حصول تغيير كبير وحاسم مؤثر على خط سير التاريخ العربي الراهن عبر التراكم الذي يمكن أن يحصل في الصعيد المعني وما يجره من تغييرات ضرورية على الأصعدة الأخرى؟

هل نستطيع أن نقول مثلاً: إن إدراكًا قويًا قد بدأ يسري في أوساط النخب العربية بطبيعة الأسباب التي أدت إلى تعثر العالم العربي وعدم قدرته على مجاراة المجتمعات الأخرى والرد بنجاح على تحديات الثورة الصناعية والعلمية ؟ وهل هناك إدراك أفضل اليوم لدى الأوساط نفسها لضرورة الشروع بإصلاحات جذرية وسريعة وشاملة تزيل العقبات التي منعت تقدم العالم العربي وتحديثه بالعمق، وأن من الممكن منذ الآن حساب الزمن المتبقي للخروج من وضعية العجز والهامشية ؟ وأن بإمكاننا أن نراهن، مع حظ كبير بعدم الخطأ، على نهضة سياسية أو فكرية أو أخلاقية أو اقتصادية تفجر طاقات جديدة في المجتمعات العربية وعند الأفراد لم تكن موجودة من قبل؟

ترمي هذه التساؤلات جميعًا إلى التنبيه إلى أن مستقبل أي مجتمع ودوره التاريخي لا يتحدد فجأة ومن دون إشارة سابقة، ولكنه نتيجة تراكم وتطور بطيئين يمكن ملاحظة آثارهما على مدى فترة طويلة.. فلا تحصل الطفرة التقنية أو العلمية أو الاقتصادية أو العسكرية من دون سابق إنذار ولا تأهيل ولا تكوين، إنها لا بد أن تكون مسبوقة بديناميات نمو وتغيير وتجديد لا يمكن لإشارتها أن تغيب عن العين الفاحصة. وهذا هو الذي يجعل معرفة المستقبل ممكنة. فهي تستند إلى تحليل المعطيات القائمة أو التدقيق في اتجاهات تطورها الممكنة والمحتملة.. ولا يعني هذا بالتأكيد أن التوقعات المسنودة إلى معطيات يمكن كشفها بالملاحظة

التجريبية لا تخطئ.. فيمكن تمامًا أن تحصل كارثة أو طفرة سلبية تقطع الطريق على الاتجاهات القوية الكبيرة أو تحبط بعض الديناميات الفاعلة، فلا تتحقق هذه التوقعات، لكن منطق التوقع القائم على فحص المعطيات التجريبية يبقى المدخل الوحيد لمعرفة المستقبل بمنهج العقل، ومن غير ذلك ليس هناك وسيلة أخرى ممكنة لمعرفة المستقبل سوى الاتصال بعالم الغيب عن طريق النبوة أو الاعتماد على التنجيم وطرق الشعوذة والسحر التي لا تقدم شيئًا.

فهل يبرز الواقع العربي الراهن بعض هذه الديناميات التراكمية، المادية أو التقنية أو المعرفية أو الأخلاقية ؟ هل نستطيع أن نتحدث بثقة عن تراكم تكنولوجي حقيقي يمكن المراهنة عليه لتجاوز دينامية التبعية الكاملة في ميدان التجديدات التقنية، أو أن نلاحظ تجديدًا مثيرًا في شروط تجديد عملية الإنتاج الاقتصادية والاجتماعية، أم أن نشير إلى طفرات مبشرة في ميدان البحث العلمي، أم إلى تحولات سياسية جدية تزيد من الشعور بالمسؤولية الفردية والجماعية، أم إلى تنام مهم في درجة إدراك النخب السائدة في العالم العربي، الرسمية والمعارضة، لطبيعة الأوضاع الصعبة والتحديات التي تواجهها المجتمعات العربية في المستقبل القريب والمتوسط، وفهمًا عميقًا للأسباب التي تسهم في إضعاف قدرة العالم العربي على التطور والنمو؟

يبدو لي أن الأمر مختلف كثيرًا عن ذلك، فاتجاهات التفكير الحالية، كما تعكسها أقوال وسلوكيات القسم الأكبر من المسؤولين العرب، توحي بأن النخب الحاكمة سعيدة جدًا بما حققته من إنجازات، وراضية تمامًا عن الأوضاع الراهنة، فهي تعتقد أن وضع العالم العربي على أحسن حال، بل إنه كما يعتقد قطاع كبير منها، أفضل بكثير مما هو الحال في البلاد الصناعية، التي توصف هنا -بالمناسبة- بأنها تعيش أزمة طاحنة وتعاني من أزمات كبيرة، اجتماعية واقتصادية ونفسية.

وعلى الرغم من التقديرات السلبية جدًا التي تحفل بها تحليلات معظم المثقفين والناشطين العرب، الأكثر وعيًا بمجريات التحولات العالمية، فإن القطيعة بين هؤلاء وبين الطبقات الحاكمة من جهة والرأي العام من جهة ثانية قد تعمقت، لدرجة أصبح من الصعب عندها أن تلقى هذه الانتقادات الصدى المنتظر.

وهكذا لا يبدو أن هناك وعيًا عميقًا ومشتركًا بنقاط ضعف العالم العربي وضرورات تجاوزها لمواجهة تحديات المستقبل.. إن موضوع النقاشات الوطنية عند معظم النخب الحاكمة في البلدان العربية لا يزال يتعلق بكيفية توزيع مغانم الحكم، أو تقاسم السلطة، أو وراثتها من قبل هذه المجموعة أو تلك. وليس الحديث المتكرر عن الإصلاح في السنوات الأخيرة إلا جزءًا من استراتيجيات الأجيال الجديدة من النخب ذاتها في تعزيز موقفها في الصراع على تأمين وراثة السلطة وانتقالها. إنه يهدف إلى تحديد أسس الشرعية السياسية للسلطة، تمامًا كما ترمي الأجيال الشابة الطامحة إلى الحلول محل جيل الآباء القديم في مواقع المسؤولية – اللامسؤولية إلى تحديد نظم الحكم مع الاحتفاظ بقواعد الممارسة كما هي دون تغيير.

فالصراع الراهن على السلطة يبدو لي أنه من نمط الصراع بين أجيال لا بين مناهج مختلفة للإدارة والحكم. ولا يبشر إذن بأي تحول ذي قيمة في الحقل السياسي الذي يشكل في البلاد العربية المركز الأول للإعاقة التاريخية للمجتمعات الراهنة.

السؤال الذي يبقى مطروحًا ربما هو التالي: هل ستلعب بعض القيم المستمدة من التراث العربي الإسلامي دورًا مؤثرًا في التمدن البشري في القرن القادم؟ وما هي بالضبط هذه القيم الخصوصية، ومن أين تنبع فضيلتها الاستثنائية؟

ليس من الممكن فهم الدور الخاص الذي يمكن أن تلعبه أي ثقافة اليوم وفي

المستقبل في تحديد مصير الإنسانية من دون معرفة المستويات المختلفة التي تعمل الثقافة من خلالها، والتفاعلات التي تحصل فيما بينها.. وهذه المستويات هي في نظري ثلاثة:

**المستوى الأول**: هو المستوى الحضاري الشامل، وفيه تعبر الثقافة عن درجة سيطرة الإنسان على محيطه ونفسه، وتطور قدرته على التحكم فيهما.. وهي تعكس من هذه الناحية المرحلة الأخيرة من تطور الشرط الإنساني.. وتتجسد في معايير تفرض نفسها على المجموعات البشرية جميعًا، باعتبارها معايير مرجعية مشتركة وأساس الاندراج في التاريخية الكونية العالمية.. وتنتسب الثقافة –من حيث هي حضارة– إلى التاريخ، وتقدم المرجعية التي تعكس موقع كل جماعة في التراتبية الثقافية العالمية.. إنها تحدد موقع كل ثقافة من الحركة التاريخية، فتسمها بالمعاصرة أو بالتأخر واللاتاريخية.

**والمستوى الثاني**: هو مستوى الثقافة من حيث هي مدنية، أي خزانًا للصيغ والاتجاهات والمواقف والميول التي تميز جماعة من الجماعات الكبرى وتتحكم بطريقة عيشها وسلوكها لآماد طويلة.. وتنسب الثقافة من حيث هي مدنية للجماعة لا للتاريخ.. إنها ذاكرة جماعية، تختزن جميع الصيغ والاتجاهات والميول القوية والعميقة التي تشكل الرأسمال الرمزي التاريخي والحاضر لكل جماعة. فهي تشرط من دون شك سلوكنا العام والخاص، لكن هذا الإشراط لا يعني الحتمية المطلقة، ذلك أن الصيغ والحلول الجاهزة والأساليب والأنماط التي ينطوي عليها الخزان الثقافي لأي جماعة ليست واحدة، ولكنها متعددة ومختلفة ومتباينة مع احتفاظها بخصوصياتها بالمقارنة مع الذاكرات الجماعية الأخرى.. والمجتمعات تستطيع أن تختار من هذا الخزان ما يلاؤمها حسب الظروف التي تجد نفسها فيها والتحديات التي تتعرض لها..

وقد تبتعد عن الصيغ التقليدية المطبوعة في ذاكرتها أو عن الكثير منها، كما تستطيع أن تعدل فيها على ضوء تجربتها التاريخية.. وقد تخلط بين صيغ وأنماط متعددة ومتباينة الأصول والمشارب أيضًا.. وككل رأس مال بشري، تتوقف قيمته ومضمونه ونتائجه على طريقة استثماره وميادين هذا الاستثمار واتجاهاته من قبل الجماعة التي تملكه.

أما **المستوى الثالث**: فهو الثقافة من حيث هي مشاركة خلاقة للفرد أو لمجموعة منفردة، لذات فاعلة، في إبداع حياته الفردية على الأرض وداخل المجتمع.. وهي تتكون من أساليب يطورها كل فاعل تاريخي، من جهة حسب إمكاناته ورأسماله الثقافي وظروفه لتكييف سلوكه الذاتي مع معايير الحضارة، ومن جهة ثانية مع الصيغ الثابتة في الذاكرة الجمعية. إنها الثقافة على صعيد الممارسة اليومية، وهي تمثل القراءة الشخصية التي يقوم بها لا محالة كل فريق فاعل لإدراج أو إعادة اكتشاف نفسه مع ما يبدو في كل مجتمع وعصر المضمون الحقيقي لمعنى الإنسانية أو ما يشكل ماهية الإنسان. وهذه هي الثقافة الإبداعية، التي تنسب إلى الفاعل وتشكل أساس تجاوز التقاليد، والتفاعل مع العصر في الوقت نفسه.

وإذا كانت الثقافة في مستواها الثاني، أي من حيث هي مدنية، وصيغ واتجاهات واختيارات مكرسة تاريخية، تمثل بالنسبة للجماعة التي تنتمي إليها مصدر الخصوصية، بقدر ما تعكس تجربة تاريخية متميزة لا يمكن مطابقتها مع تجربة أي جماعة أخرى، فإن الثقافة في مستواها الحضاري تشكل فضاءًا مشتركًا وعموميًا يدفع إلى اللقاء بين البشر، ويتيح التفاعل والتمازج الطبيعي والحي فيما بينهم من وراء الثقافات التاريخية والإبداعات الذاتية.. إنه يمثل المحيط الذي تصب فيه الثقافات

ثمرات إبداعها، كما تمتح منه حاجتها من الرأسمال الرمزي المتجدد كما لو كان احتياطيًا عامًا ومصرفًا لإقراض الجماعات المحتاجة.. وبالمثل، إن الثقافة من حيث هي إبداعًا للذات أو أنسنة للكائن، تعبر عن تجربة فريدة وفردانية، وتفتح إمكانية تجاوز الثقافة بمستوييها الحضاري والتاريخي معًا.

وليس هناك شك في أن مساهمة العالم العربي والإسلامي في إنتاج القيم الحضارية العامة سوف يزداد مع الزمن بقدر تحسن سيطرة المجتمعات العربية الإسلامية على تقنيات الحضارة الحديثة وآلياتها. لكن لن يكون في هذه المشاركة ما يمكن أن يشكل مساهمة متميزة للحضارة العربية، فمن المؤكد أن البلاد العربية والإسلامية سوف تزيد من حصتها في إنتاج المواد الصناعية وأدوات الحضارة الحديثة والتقنيات والأجهزة المتقدمة، على الأقل كي تلبي الحاجة المتزايدة لسكانها، وتقلص من معدل العجز والتبعية في تموينها بها من الخارج، لكن لن يكون لهذه الزيادة قيمة حضارية كبرى، على الأقل على المدى المنظور.

أما فيما يتعلق بمستوى التنظيمات المدنية، أي استغلال منتجات الحضارة وتقنياتها وترميزها واستيعابها من قبل المجتمع، أي من حيث تأثيرها على بناء النظام الاجتماعي وتطوير القيم المتضمنة فيه، فمن الممكن جدًا أن يبدع العالم العربي والإسلامي، بسبب التوتر العميق الذي أنشأته الحداثة المجهضة نفسها فيه، حلولاً وصيغ تنظيم وتوطين للتقنية ومستلزماتها الاجتماعية، تختلف عن تلك التي طورتها أو يمكن أن تطورها المجتمعات الأخرى.. لكنني لا أعتقد -كما يعتقد الكثيرون- أن ما يميزنا أو سوف يظل يميزنا عن المجتمعات الأخرى في الثقافة هو سيطرة الروحانيات الشرقية في مقابل سيطرة الماديات في الغرب، ولا المكانة الخصوصية التي يحتلها الدين عندنا بما يجعلنا مختلفين مع المجتمعات التي تبنت العلمانية، ولا كوننا

مجتمع الإيمان والاعتقاد مقابل مجتمعات الجحود والدهرية.

وعلى الأغلب، إن الذي سوف يميز المساهمة الإبداعية الحضارية للمجتمعات العربية على هذا المستوى، هو إعادة إنتاج وتطوير وتطويع قيم لا يبدو أن العرب والمسلمين أنفسهم قد أدركوا حتى الآن أهميتها، وهي في نظري قيم مجتمع التركيب والتوليف والاختلاف، وقيم مجتمع الأخوة والمعاشرة والمؤانسة والتواضع، في مقابل قيم مجتمع الفردانية والاستقلال الذاتي العدائي والعنجهية.

أما على المستوى الثالث من مستويات عمل الثقافة وفاعليتها، فالعرب والمسلمون يقفون على الأرضية نفسها التي تقف عليها جميع الشعوب والثقافات الأخرى، وليس هناك ما يمنع أن ينافسوا المجتمعات الأخرى في الفهم والتحليل والتفسير والإبداع النظري والعلمي والروحي إذا توفر لمجتمعاتهم الحد الأدنى من شروط الحياة الحرة والطبيعية.

وبالإجمال، إن مساهمة العرب في المصير الإنساني العالمي ليست مسجلة مسبقًا في تاريخهم الخاص، كما تكون الجينات أو المورثات مسجلة في الذاكرة البيولوجية للجنين. كما أنها ليست محفورة في البنية العميقة للثقافة العربية، أو في البنية العقائدية للدين الإسلامي. إنها ثمرة الجهود التي سوف يبذلها المسلمون، أفرادًا وجماعات وتكتلاً ممكنًا، من أجل استيعاب مكتسبات الحضارة الراهنة والتمكن منها وتجاوزها، أي إعادة إنتاجها بطريقة إبداعية، بما في ذلك إعادة استيعاب وفهم وتفسير الإرث الثقافي والديني، وتفعيلهما، من منظور آمال الإنسانية الجديدة ومطالب أجيالها المتغيرة.

باختصار، ليس لنا من شفيع في التاريخ القادم وفي المستقبل إلا ما ننجح في

تطويره نحن جيل الحاضر من قدرات ومؤهلات، لفهم العالم ومسايرته والمشاركة فيه على قدم المساواة مع غيرنا من المجتمعات البشرية.

أما الذين يعتقدون أن ما خلفه لنا أجدادنا من إرث ثقافي وديني وحضاري استثنائي، أو أن طبيعة هذا الإرث وقيمته الأصلية يضمنان لنا من دون شك أن نلعب دورًا كبيرًا في مستقبل الحضارة الإنسانية، أو يؤهلاننا لقيادة هذه الحضارة ويكفلان لنا موقعًا متميزًا فيها، فهم يزرعون الأوهام ولا يمكن أن يحصدوا غير الهشيم.

إن صيانة هذا الإرث، والإبقاء عليه حيًا، ليسا مضمونين من دون الارتقاء بالوعي والجهد والتنظيم إلى مستوى الحضارة الراهنة، أي من دون بذل الجهد الاستثنائي لإعادة بناء هذا الإرث وتوظيفه وتثميره حتى يستعيد الحياة والحيوية في شروط وجود لم يعرفها من قبل ولا كان مؤهلاً لمعرفتها.. فلن نكون إلا ما طمحنا ونطمح إلى أن نكون، بصرف النظر عما تركه لنا الأجداد من رأس مال ومن ملكيات.. وربما لن يكون لهذا الإرث قيمة أكبر من تلك الجذوة العميقة المتوهجة التي تختزنها الثقافات تحت ركام القضايا والعقائد والأفكار والمنتجات الكثيرة، والتي تسمح وحدها بتغذية طموح المشاركة في الحضارة الكونية من مستويات الفعالية والندية.